

مناسك الحج في رحلة الولا تي

د. محمد جميل مبارك

ملخص البحث

يكشف البحث عن بعض الجوانب العلمية التي تميزت بها شخصية الفقيه محمد يحيى الولايتي، وذلك بدراسة تراثه، وإبراز الجانب الفقهي في شخصيته رحمه الله، من خلال مبحث «مناسك الحج» من مباحث رحلته الحجازية، ويُجلى البحث عن العمق الفقهي لهذا الفقيه النابغة، ويظهر ذلك في مناقشاته الناضجة لقضايا فقهية وهو في رحلته إلى الحج، وإن لم تتعلق بالمناسك، كما يبرز السمات العامة لرحلة العلماء إلى البقاع المقدسة، وبالأخص السمات العلمية والعملية لأداء الولايتي لمناسك الحج.

الباحث في سطور

د. محمد جميل مبارك (Jamil57aga@hotmail.com)

- < أستاذ التعليم العالي بكلية الشريعة، جامعة القرويين - أكادير.
- < رئيس المجلس العلمي المحلي لعمالة أكادير إداوتنان.
- < عضو الهيئة الاستشارية لنصرة الفقه المالكي بالدليل بالإمارات العربية المتحدة.
- < مستكتب بالمجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
- < أستاذ متقن في القراءات العشر.
- < حاصل على دكتوراه من كلية الشريعة الإسلامية بجامعة القاهرة في موضوع: «التوثيق والإثبات بالكتابات في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي».
- < شارك بالعديد من المقالات العلمية في ندوات وطنية ودولية.

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد فإن لشخصية الفقيه محمد يحيى الولايتي جوانب علمية ناصعة يدركها دارس تراثه، وأنصع هذه الجوانب: الجانب الفقهي بالمعنى العام للفقه، فقد لمع فيه الولايتي ونبغ، ونبوغ العالم في مجال علمي ما، لا بد أن يتجلى في تراثه وفي طلبته، وقد عنيت بإبراز هذا الجانب الفقهي في شخصية الولايتي رحمه الله، من خلال مبحث «مناسك الحج» من مباحث رحلته الحجازية، فلما اطلعت على هذا المبحث وجدته غير مؤف بالمقصود؛ إذ غلب عليه السرد الوصفي كما هو الشأن عادة في الرّحلات، لكن رأيت للرجل مناقشات ناضجة لقضايا فقهية وهو في رحلته إلى الحج، وإن لم تتعلق بالمناسك، فهو ناقشها بمناسبة رحلته للحج، والمناسبة شرط، وهي مناقشات تدل على العمق الفقهي لهذا الفقيه النابغة.

وضمنت هذا العرض، بعد هذه المقدمة مبشرين، عرضت في الأول السمات العامة لرحلة العلماء إلى البقاع المقدسة، وعقدت المبحث الثاني لبعض السمات العلمية والعملية لأداء الولايتي لمناسك الحج.

المبحث الأول: السمات العامة لرحلة العلماء للبقاء المقدسة

كل رحلة تبدو على رحلته ملامح شخصيته وسمات تخصصه، وأمارات اهتمامه، فبعد الجوانب المشتركة بين كل الرحالين كالجانب الوصفي الذي فيه وصف للبشر والأرض، وكالجانب التاريخي، يتفرد كل رحلة عن الآخر ببعض الملامح والسمات والخصائص تنضح بها عباراته، وتشي بها كلماته، ويضوع بها منطقته.

فرحلة العالم غير رحلة التاجر، ورحلة الجغرافي غير رحلة الفقيه، ورحلة المؤرخ غير رحلة السائح المتنزه.

ويمكن إجمال أجلى سمات رحلة العالم فيما يلي:

- 1- تجلي ملامح العلم على كل أقواله وأفعاله وحركاته، فكل من يحمل شيئاً في باطنه لا بد أن يظهر على ظاهره، وهذه السمة بادية على العلامة الولاتي.
- 2- الحرص الشديد على اقتران العلم بالعلم؛ إذ بهذا الحرص يرتقي إلى مستوى يصلح معه لاتخاذ الناس إياه قدوة لهم يتسامون إلى أن يكونوا مثله.
- 3- التواصل مع أهل العالم في مختلف البلدان التي يحل بها، فأول من يبحث عنهم العالم هم العلماء، فلا يكادون يسمعون قدوم عالم على بلدهم إلا اشتاقوا للقاءه، والسماع منه والأخذ عنه، ويلحظ قارئ الرحلة الحجازية هذه السمة بجلاء، فمنذ خروجه من بلده لم تنقطع صلته بالعلماء وطلبة العلم، فما حل بالمحطة الأولى من رحلته «بأغريجيت» حتى أخذ عليه الفقيه مولاي محمد المهدي علم مصطلح الحديث ومنظومة الشيخ محمد بن الشيخ المختار لورقات إمام الحرمين... إلخ.

وعندما حل بشنقيط أصابه مرض، فمكث عند أهلها أكثر من أربعين يوما وهم يكرمونه ويمرّضونه ويتعلمون منه العلم...⁽¹⁾.

وعندما وصل إلى كلميم أجاب عن سؤال عن صلاة الجمعة في مسجدي كلميم القديم والجديد، أيهما تصح فيه؟⁽²⁾.

وبعد أن انتهى الفقيه الولاقي من أداء مناسك الحج رجع إلى جدة فنزل في دار جمجوم، واجتمع في مقامه بجدة بالسيدان الأكرمين محمد، والطاهر ابني أحمد «المشاط»⁽³⁾، وعائلة المشاط معروفة هناك بالعلم، وقد أعجب الولاقي بعلمهم وإكرامهم فقال في أبيات له:

وانزل على آل مشاط تجد كرما غمرا يعم بعيда الدار والداني
قرى وعونا وتجهيزا ومكرمة وبسط كف وتحديثا بأفنان⁽⁴⁾

ولقي بجدة أيضا الشيخ الفقيه التلمساني، والشيخ محمد قلوم.

وكل هؤلاء قد أتحفوا الفقيه الولاقي وأحسنوا إليه أتم الإحسان⁽⁵⁾، ولا يُحرم من إكرام أهل العلم إلا من فيه جلافة أو صلافة كذلك الذي اشتكى منه الولاقي. إذ أكراه منزله «كراء صعبا» حسب عبارته دون أي مراعاة لمقام العلماء وضيوف الرحمان، إذ جعل مبلغ كراء المنزل ثلاثة عشر قرشا، لم يسقهم معها ماء ولم يذقهم طعاما، فاضطر ذلك الولاقي إلى أن يقول:

(1) الرحلة الحجازية، (ص 18).

(2) المصدر نفسه (ص 87).

(3) المصدر نفسه (ص 174).

(4) المصدر نفسه (ص 185).

(5) المصدر نفسه (ص 174).

إن يمنع الله رزق العبد أنزلــــه عند المنيّاي اسما عيل بينبوع!
 يكره منزله أغلى الكــــراء ولا يسقيه ماء ولا يقريه من جوع
 ولا يحادثه ولا يباسطه والقول منه لديه غير مسموع!

4- التواصل مع طلبة العلم وإسعافهم بما يطلبونه من العلم وتزويدهم بما يرغبون فيه من النصح فكان الرحالة العالم يدرس ويفتي ويحل غوامض العلم ويرشد الحيارى.

وهذه السمة مبثوثة في الرحلة الحجازية هذه ، فقد قام الولاتي بمهمة التدريس بعد الانتهاء من مناسك الحج حين مقدمه إلى المدينة النبوية فقد درس في مدة إقامته في تلك البقاع الطاهرة موطأ الإمام مالك ، وعقود الجمان في علم البيان للسيوطي، والورقات في أصول الفقه لإمام الحرمين.

5- التربية الهادية للتي هي أقوم عبر وسيلتين

◀ إحداهما: المواعظ والحكم والنصائح التي يبذلها العالم أينما حل.

◀ وأخرهما: السلوك القويم والسمت الحسن اللذان يجبيان العالم للأجيال الناشئين.

المبحث الثاني: أهم السمات الملحوظة في أداء الولايتي لمناسك الحج

في القسم الرابع من الرحلة الحجازية عرض لمراحل قيام الولايتي بالتوجه إلى البقاع المقدسة للسكن فيها ستة أشهر من العام الثالث عشر بعد ثلاثمائة وألف أي قبل سبعة عشر عاما من وفاته.

والرحلة في أصلها إنما كانت لحج بيت الله الحرام كما صرح به في مقدمة الرحلة، وكما سماها: الرحلة الحجازية التي استغرقت ست سنوات وثلاثة أشهر.

وعرضه لكيفية أدائه لمناسك الحج كان موجزا، ومع إيجازه يستطيع المطلع أن يتبين سمات اتسم بها حجه:

⊗ السمة الأولى: السرد الوصفي المتتابع، فلم تتخلله المناقشات الفقهية ولم يتناول - أو لم تتح له الفرصة - أن يتناول بعض الإشكالات التي تثار عادة في المناسك، لكن اذا علمنا أن أدائه للمناسك كان وفق مراجعة فقهية دقيقة فسنتنع أن سرده يصلح مرجعا ملخصا للحاج الذي يريد أداء مناسك حجه وفق ما ثبت في السنة.

⊗ السمة الثانية: سعة أفقه العلمي، وتتمثل هذه السعة في أمرين جليين:

« الأول: مواءمته بين ما هو مقرر في مذهبه في مناسك الحج وبين ما هو وارد من المباحث العلمية حول حجة النبي ﷺ.

وأول ما يلفت النظر أن الولايتي كان متمتعا بالعمرة إلى الحج، والتمتع من الأنساك الثلاثة المعروفة، والمالكية يعدون نسك الأفراد أحبها إليهم، وقد وردت عنده عبارات صريحة في كونه متمتعا بالعمرة إلى الحج كقوله: فاغتسلنا لطواف العمرة⁽¹⁾، وكقوله «فحلقتنا وذبحنا هدايانا لأننا متمتعون...»⁽²⁾.

(1) الرحلة الحجازية (ص 168).

(2) المصدر نفسه (ص 172).

وقد يكون للولائي دافع شخصي لاختيار نسك التمتع على نسك الإفراد، والراجح أن يكون تبكيه في دخول الحرم دافعا قويا لتمتعه بالعمرة إلى الحج؛ إذ أحرم بها يوم ثالث عشر ذي القعدة!

وكان برفقته ابنه أحمد، وقد احرم بالحج مفردا، لأنه لم يأت إلى مكة إلا منسلخ ذي القعدة.

كما كان برفقته ابن آخر له اسمه: محمد الحسن، لم يبين النسك الذي احرم به، ويبدو أنه حج متمتعا كأبيه كما قد يومئ إليه، قوله: «وأنا أحمد محرما بحج مفردا»⁽¹⁾.

وأيا ما كان فهو لم يجمد على ما كان يجمد عليه العوام من حرفة المذاهب.

« الأمر الثاني: الذي يجلي سعة أفقه: إقراره بتعدد الاتجاهات المذهبية في الحرمين، فهو لم يعقب على هذا الأمر بما قد يدل على ضيق صدره باتجاه مذهبي ما، وإنما اكتفى بذكر الواقعة الدالة على هذا التعدد، إذ ذكر أن صلاة الصبح في الحرم المكي أقيمت لإمام الشافعية وقال: «فصلينا معه»⁽²⁾ ثم ذكر فيما بعد وهو يزور المدينة النبوية أنه صلى الصبح مع إمام الحنفية⁽³⁾.

وهذه الظاهرة كانت شائعة في عدد من بلدان المشرق الإسلامي خصوصا الحجاز ومصر، وما زالت هذه الظاهرة في بعض تلك البلدان وإن بصورة أقل.

وكان كثير من الأسئلة تطرح بسبب تعدد المذاهب، كسؤال اقتداء مالكي بحنفي أو العكس.

(1) الرحلة الحجازية (ص 172).

(2) المصدر نفسه (ص 169).

(3) المصدر نفسه (ص 186).

⊗ السمة الثالثة: حضور الاحتراس الفقهي في ذهنه وهو يعرض أداءه للمناسك وكأنه يفترض أن مناسكه يقرؤها المبتدئ والعالم.

ومن أمثلة ذلك أنه ذكر أداء الصلوات يوم التروية وقال: «فصلينا بها الظهرين قصراً، والمغرب والعشاء بقصر الثانية».

ومنها قوله: «بدأنا بالحجر الأسود فقبلناه بالفم... وجعلنا البيت على اليسار فطفنا به سبعة أشواط، رملنا في الثلاثة الأول منها، ومشينا في الأربعة الباقية بدأنا بالطواف من الحجر الأسود، فإذا انتهينا إليه عددنا ذلك شوطاً... كلما مررنا بالحجر الأسود قبلناه بالفم، وكلما مررنا بالركن اليماني استلمناه باليد» إلخ...⁽¹⁾.

⊗ السمة الرابعة: استثمار مدة إقامته بالحرمين أفضل استثمار ومن مظاهر ذلك:

(أ) حرصه على أداء الصلوات الخمس في الحرم كما نص على ذلك بقوله: «ونحن - والله الحمد - نصلي الصلوات الخمس في المسجد الحرام»⁽²⁾.

(ب) حرصه على الإكثار من الطواف طيلة مقامه بمكة، فقد كان يطوف كل يوم بين خمسة أسابيع، وثلاثة أسابيع!!⁽³⁾.

(ج) حرصه على أداء الصلوات وهو في المدينة في المسجد النبوي، في الروضة الشريفة، ومن العبارات الصريحة الدالة على هذا الحرص قوله: «والحاصل أننا مكثنا في المدينة أربعة أشهر سوى ثلاث ليال ونحن في تلك المدة كلنا نصلي الصلوات الخمس في روضة الجنة، وإن منعنا الزحام نادراً نصلي في سائر المسجد النبوي الذي كان على

(1) الرحلة الحجازية (ص 168-169).

(2) المصدر نفسه (ص 170).

(3) المصدر نفسه (ص 170).

عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما الزيادة فما صلينا فيها فرضاً واحداً إلا جمعة واحدة صليناها في زيادة عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ...»⁽¹⁾.

❊ السمة الخامسة: ولعه بالسنة وما عليه السلف الصالح

ويقف القارئ بسهولة على هذه السمة في أداء الولاتي لمناسكه فما ذكره في أدائه موافق لما ورد في السنة، ولذلك كثيراً ما يصرح ببعض الأفعال تنبيهاً على وجه السنة فيها، كما سبق في التمثيل للاحتراس الفقهي عنده.

وكان يردد أن ما فعله هو مقتضى السنة كقوله: «فصلينا حيثئذ ركعتي الطواف في مقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قرأنا في الأولى بالكافرون وفي الثانية بالإخلاص كما هو في السنة»⁽²⁾.

وتكرر هذا في قوله في رمي جمرة العقبة: «منى عن يميننا والبيت عن يسارنا كما هو في السنة».

وأضاف التلبية إلى النبي ﷺ ثلاث مرات: مرتين في العمرة بقوله: «ملبين تلبية النبي ﷺ وتلبية النبي ﷺ هكذا لفظها...»⁽³⁾ ومرة ثانية في الحج بقوله: «ولينا تلبية النبي ﷺ متوجهين إلى منى وعرفة»⁽⁴⁾.

وقد يعبر بالامثال كشربه من ماء زمزم حتى أتم التضلع امثالاً لقوله ﷺ: التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق (الأزرق في تاريخ مكة)، وقوله ﷺ: «آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من ماء زمزم...» (ابن ماجه في المناسك).

(1) الرحلة الحجازية (ص 194).

(2) المصدر نفسه (ص 169).

(3) المصدر نفسه (ص 168).

(4) المصدر نفسه (ص 171).

كما يعبر بالافتداء كقوله: «لما دنا من الصفا: نبدأ بما بدأ الله به وتلا قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّبَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قلنا ذلك افتداء برسول الله ﷺ وإضافته بعض الشعائر والمناسك إلى النبي ﷺ، كل ذلك ينم عن استحضاره للسنة وعن محبته لموافقتها، وتلك - وأيم الله - من أجل خصائص العالم الرباني.

وقد يتعمد استعمال العبارات الواردة في حجة النبي ﷺ كقوله: «فمررنا بين المازمين: الجبلين المعروفين نسير العنق فإذا وجدنا فجوة نصصنا»⁽¹⁾.

✽ السمة السادسة: حرصه على زيارة المآثر الإسلامية في مكة والمدينة.

فقد زار البقيع واحدا وقباء وكثيرا من المزارات.

ومع هذه السمات العامة ففي عرضه لأدائه للمناسك بعض الإشكالات وبعض الأمور التي تحتاج إلى مناقشة وتوضيح، وأضرب مثلا لذلك بأمرين:

«الأول: أنه إنما تجرد من المخيط والمحيط في جدة، فإذا أحرم من جدة كما يفيد قوله: «ثم ارتحلنا من جدة... فأحرمنا منها بالعمرة...»⁽²⁾.

ومن المعلوم أن جدة توجد بعد ميقات أهل المغرب، فلا ندري مستند الفقيه الولايتي في ذلك، إذ لم يصرح بشيء في الموضوع.

«والثاني: إكثاره من التوسل فيه، فتوسله بالنبي ﷺ وبصحابه وبأمهات المؤمنين، وبكثير من الصالحين، ولم يثر ما في هذه المسألة من نقاش علمي.

بجاء الله

(1) الرحلة الحجازية (ص 172).

(2) المصدر نفسه (ص 168).

